

بين الورق والدوح

[رسالة مهداة إلى الليو « دى كومتين »]

للدكتور زكى مبارك



حدثت قرأتى غير مرة أن ذا كرتى فيها انحراف غريب :
ففى ضعيفة كل الضعف فيما يتصل بالأرقام والأعلام ، وقوة
كل القوة فيما يتصل بالحوادث والمعانى ، ولها قدرة عجبية على تمثيل
الملامح والأصوات والألوان ، فمن السهل أن أصف حادثاً رأيته
قبل عشرين سنة ، مع الإحاطة بما لا يسه من دقائق التفاصيل ،
ولكن من الصعب أن أتذكر رقماً سمعته قبل يومين ، إلا أن
يتصل بأمر تلتفت إليه الذّاكرة بعض الالتفات ، ولأجل هذا
أقيد ما يهمنى من الأرقام فى دفتر خاص

وفى هذه اللحظة أتذكر جيداً كيف شهدت عدوان الخريف
على آثار الربيع ، ولم أكن شهدت ذلك العدوان قبل أول أيلول
قضىته فى باريس ، وأتذكر أيضاً كيف كانت قلماى تحبّان
فى أوراق الأشجار وأنا أحترق خديقة « لكسمبور » ، وأكاد
أتمثل كيف انتشيت حين رأيت ذلك المنظر الجميل ، وما هو
فى الظاهر بجميل ، ولكنه أعانى على فهم جوانب من حيوية
الأدب الفرنسى ، ففيه ألوف من صور العدوان البنيض ، عدوان
الخريف على آثار الربيع ، بلا تهب ولا استحياء

وفى يوم عاصف جلست تحت « الدوح » وهو ينظر بحزن
إلى تساقط « الورق » ، فوعيت من حوار أحاديث لن أنساها
ما حيت . وكيف أنساها وقد زلزلت قلبي ، وأطلعتنى على بعض
ما كنت أجهل من سرائر « الأدواح » و « الأوراق » ؟

سمعت « الدوح » يقول فى صراخ مبجوح :

« إلى أين يمضى هذا الورق الساقط ؟ وكيف جحد جميل
عليه ؟ حملته وهو ضيف لا يقدر على التماسك ، وأمكنته من
شرب الندى وارتشاف أكواب الضياء ، وحرمت نفسى عنوبة
المتع بضحوه الشمس فى الربيع ، ونشوة القيظ فى الصيف ،
ليجد الفرصة لتذوق النعم ، فهل حفظ هذا الصنيع ؟

« نعم ، نعم ، إلى أين يمضى هذا الورق الساقط ؟ وكيف جحد جميل
عليه ؟ حملته وهو ضيف لا يقدر على التماسك ، وأمكنته من
شرب الندى وارتشاف أكواب الضياء ، وحرمت نفسى عنوبة
المتع بضحوه الشمس فى الربيع ، ونشوة القيظ فى الصيف ،
ليجد الفرصة لتذوق النعم ، فهل حفظ هذا الصنيع ؟

بحرية الطفل الناقل عن جهاد أبيه ، ولكل أب جهاد يجمله
الأبناء ولو كانوا من اللهممين ، فهل عرف الورق الساقط أننى
حرمت نفسى نعيم الندى والضياء ليتخايل ويستطيل ؟

وسكت « الدوح » لحظات ، ثم صرخ من جديد :
« والآن يعرف الورق أن الشتاء قادم ، وأننى سأحتاج إليه
لدفع عواذى البرد والجليد ، فهو ينخلع عنى ، ليتركنى بلا غطاء ،
فى قر الشتاء ! »

وسمع الورق أنين الدوح فهتف :

— ما عتبتك على أيها الدوح ؟ ما عتبتك على وقد بذلت
فى البر بك غاية ما أمك ؟ ألا تذكر أنى ضبرت على مصاحبتك
فى السيطرة والاستملاء شهوراً من الزمان ؟ ألا تعرف أنى عقت
من أجلك أمنا الأرض ؟ فاذنبى إذا اشتيت العودة إلى الأم
الربو ، وهى أيضاً تحتاج إلى من يدفع عنها البرد والجليد ؟
وسمع الدوح هتاف الورق فأجاب :

— الأرض أوى وأملك ، ولكنى فهمت عنها ما لم تفهم ،
قد حدثتني ألف مرة أنها لا تريد أن يرجع إليها غير الأموال
من أبنائها الأغراء ، فإن كنت مت أيها الورق فارجع إلى أمك
الأرض !

فزجر الورق :

— أنا مت ؟ أنا ؟ وهل يموت من يرجع إلى حجر أمه
الغالية ؟

فيقول الدوح :

— نعم ، ثم نعم ، يموت من يرضى بأن تدوسه الأقدام ،
ولن يكون لك نصيب غير الدوس ، يا جهول !

وهنا قال الورق للدوح :

— هل تنسى أنى أدفأتك فى الصيف ؟

فقال الدوح للورق :

— لم أكن أحتاج إلى دفء فى أشهر الصيف ؟ وإنما أحتاج
إلى الدفء فى أشهر الشتاء

فقال الورق للدوح :

— لا أستطيع سماع صوتك وأنت مجلج بالسواد

فقال الدوح للورق :

— إنما تجلجت بالسواد خداماً عليك . ألا تذكر أننى كنت

البعث كما أملك الإنشاء ، وهل أملك ساملة صاحب العزة والجبروت ؟ »

وتكلف الورق ما لا يطيق ليرجع إلى الدوح من جديد ، ولكنه عجز عن تحقيق ما يريد ، وتلك نهاية من يجهل السر في تتمه بشرف الوجود ، والشرف معناه الارتفاع ، وقد انحط الورق بسقوطه على الأرض ، فأسمى وهو ضعيف مهين ثم قال الدوح :

— لن نلتق بعد اليوم ، أيها الورق الساقط ، وكيف نلتق وأنا أجذعنا في التعرف إلى هويتك ؟ وهل أراك إلا وهما يصوره الرفات المسحوق ، مع قرب العهد بالفراق ؟

فأجاب الورق :

— ستجدي في الربيع المقبل

قال الدوح :

— سأجد في الربيع المقبل ورقاً غيرك

قال الورق :

— كنت أنتظر أن يكون في سخطك على ما يزهلك في جميع الأوراق

فصاح الدوح :

— كان ذلك لو أني أردت الانتفاع بالتجارب ، والانتفاع بالتجارب يدل على العقل ، ولكنه يشهد بضعف الحيوية ، والتحير أن تواجه الحياة في كل يوم بأحلام الناشئين ، لا بقول الكهول ، لتبدلنا الحياة بكرة في كل لحظة ، كما تبدو الغابة المؤذنة بالوحشة والأنس في كل حين . ولو أني اكتفيت بما جربت من أخلاق الورق لكان من المستحيل أن أراك ، بعد أن عرفت ما عرفت من شوائب سواك

قال الورق :

— وأستطيع أنا أيضاً أن أغفل الانتفاع بالتجارب وأرجع

إليك في الربيع المقبل

فضحك الدوح وقال :

— وهل كانت لك من تجارب أيها الورق ؟ هل رأيت مني ما يباب حتى تزعم أنك فارقتني عن عتاب يحويه التفضل بالإعتاب ؟ أنا الذي أنشأت ، وأنا الذي رباك ، وأنا الذي أوحى إليك معاني الشوق إلى النسي والضياء ... أنت لم تفرقتني لأنني جفوتك

أحبك حباً هو الغاية في الكرم ، لأنه حب القوى للضعيف ؟ ألا تذكر أني كنت أقاوم المواقف والزواجر لأني خدوك ذلة الالتصاق بالأرض ؟ ألا تعرف أنني أعاني لفراقك كرباً لا تطاق ؟

قال الورق :

« أتجنني إلى هذا الحد ، أيها الدوح ؟ »

فتأوه الدوح ثم أجاب :

« لا أحبك لأنك ورق ، فأنت تعرف أني صبرت على قلب الأوراق أربعين عاماً أو تزيد ، ولن أموت يوم أموت بسبب قلب الأوراق — وإنما أحبك لأنني أنشأتك كما يحب الله هذا الوجود ، فأنت بعض ما صنع دمي أيها الورق ، ولن تعيش بعد فراق إلا بفضل ما سكبت في عروقك من الدم النفيس ، وقد حل عليك غضبي ، فلا بقاء لك بعد اليوم ... وهل تستطيع أن تطب لما صنعت بنفسك أيها الورق الساقط ؟ لقد دعوتك إلى الترفق بمصيرك فلم تسمع ، ومن أجل غفلتك لبست عليك ثوب الحداد ، ولم أستغرب من فرحك بمصاغة الأرض ، فأنا أعرف أنه لا رجب بالاستعلاء غير الأقوياء ، كما أعرف أن الأم لا ترحم من أبنائها غير الضعفاء »

قال الورق :

« وبأي حق تستطيل على ، أيها الدوح ، وأنت أسود مظلم ، لا ترجى لك محبة ولا معاد ؟ »

قال الدوح :

« ذلك سواد الشباب ، يا أحمق ، وليس سواد الحداد ^(١) ، ولن تقيم الحياة لذلك أي ميزان ، وهل تطول حياتك حتى ترى ازدهائي بالورق الجديد في الهوى الجديد ؟ إن الدم الذي سواك ، سيسوى ورقاً سواك ، وسأعيب هذا العيب بالأوراق إلى أن أبلغ الثمانين أو التسعين ! »

قال الورق :

« خذني إليك ، أيها الدوح ، فقد اشتقت إلى مساعدك القوى المتين »

فأجاب الدوح :

« تعال إلي ، إن استطعت ، أيها الورق الساقط ، فأنا لا أملك

(١) هذه مخالطة من جانب الدوح ، فقد اعترف قبل سطور بأنه ليس السواد حذافاً على الورق ، وسنرى بعد سطور أنه لفراق الورق حزين .

ومع هذا فأنت لفراق حزين ، باعترافك في بداية هذا الحوار ،
وهذا الحزن هو انتقامى من غطرتك وكبرياتك ، وأنا أتوعدك
بقول أحد الشعراء :

سأنساك فانظر كيف تحيا إذا انقضى

نصيبك من روحي وحظك من قلبي
ونظر الدوح فلم ير الورق ، فأين ذهب ؟ أين ؟ أين ؟

لقد عصفت الريح فأطارت ما كان في « لكسمبور » من
أوراق ، وبأدما تماقر الحديقة من « خشخشة » كانت أروع ما سمع
من النقاء في باريس ^(١)

قال الراوى :

وكنت فتي مصرياً لم يسمع مثل هذا الحوار بين الورق والدوح ،
فصر الوفية لا تشهد انحلال الورق عن الدوح في خريف أو شتاء .

بفض النظر عن الأشجار المجلوبة من

بلاد لا تعرف خلائق وادى النيل

قال الفتى المصرى :

وتسمعت ما يقول الدوح بعد

ذهاب الورق فوعيت هذه الكلمات :

— إلى أين ذهبت أيها الورق ،

وكنت الشاهد على أن الضعف

من عناصر الجمال ؟ إلى أين ذهبت

وكان عطفي عليك دليلاً على أنى من الأقوياء ؟ إلى أين ذهبت

وبفضلك سمعت تغريد الحمام والبلايل والنعادل ، ولم أر بعد ذهابك

غير وقر الجليد في « أعوام » الشتاء ، وكل يوم في الشتاء بمام

أو علمين لن يبيش بلا أليف ؟

ثم سمعت الدوح يقول :

— لو كنت أملك من أمرى ما يريد الهوى خلعت النذار

في البحث عن الورق الناهب ، ولكن الطبيعة التى أمدتني بالقوة

قيدتني بالوقار ؛ فأنا جاثم في مكاني ، وإن كان هواي في بلدى بعيد

بعيد ، وآه ثم آه من الرعاية لا يوجب التعاقل عن الهوى المشبوب !

وسمته يقول :

— سقط عني الورق ، لأنه ضعف عن مصاحبتى في أيام

(١) الخشخشة كلمة نصيحة ، ولها عننى شواهد

أو أسأت إليك ، وإنما فارتقتى لأنك ضعفت عن صحبتي ، كما يضعف
السحاب عن مصاحبة الجبال

قال الورق :

— خذنى إليك ، أيها الدوح ، لأذوق من دمك

ما كنت أذوق

فأجاب الدوح :

— عيب الأقوياء أنهم لا يصفحون عن الذنب ولو عفر

جيبته بالتراب ، وأنت أيها الورق الساقط جججت جميل ، فلن

أراك بعد اليوم ولو استشفعت بأزهار الربيع

قال الورق :

— وهل يكون الورق الجديد أجمل منى أو أصدق منى ؟

فأجاب الدوح :

— لن يكون أجمل منك

ولا أصدق منك ، فتجارب أربعين

سنة دلتني على أنكم جميعاً من

وحل واحد ، ولكن الورق الجديد

سيلتاني وهو على جانب من البفلة

والجهل ، كوالفلة والجهل يزيدان

في قيمة الجمال ، فإذا تعاقل وتالم ،

كما تعاقلت أنت وتماقت ،

فسيكون مصيره إلى أمه الأرض ، وأستريح منه قبل أن

يسترخ منى

قال الورق

— أيكون معنى هذا الكلام أن لك سياسة مرسومة

في امتنان الأوراق ؟

فأجاب الدوح :

— معنى هذا الكلام أنى أحد حقاً أبدياً على من يتحدثون

المعروف . لقد قضيت أربعين سنة أو تزيد في تمهد الأوراق بالرفق

والطيف ، فما حفظت ورقة عهني ، ولا اعترفت بجميل . . .

ويعزى أن الله ينتقم لى فا انحلمت عني ورقة إلا كتب الله عليها

الدول والفتاء

قال الورق :

الشدائد ؟ وهل يطالب الضعيف بما لا يطيق ؟ فما عتبى عليه وهو أضعف من أن يقاسم المصاعب في أيام الشتاء ؟ وهل يتوهج الجلال إلا في أوقات اللين والصفاء ؟

ثم سمعت الدوح يقول :

« ألا يمكن انتهى بارغام الورق على أن يصبر إلى ما صار إليه ؟ كان في مقدوري أن أضعف له الكمية المبذولة من دمي ، ولكنني جهلت الواجب فارتضيت أن بعيش في الخريف بمثل ما كان بعيش في الربيع . ولو أتى ضاعفت له الدفء لكان من الممكن أن يفكر في حفظ الجليل ، والدنيا أخذ وعطاء ، ولو كره الأوفياء »

قال الفتى المصرى وهو يحاور قلبه بعد سماع ذلك الاعتراف : لقد نطق الدوح بالقول الفصل ، وأجاب عن هذا السؤال : « ما الذى يمنع من أن نعيش كما تعيش بعض الأشجار التى تخلع أوراقها في الخريف لتكتسى بأوراق جديدة في الربيع ؟ » وما وجهت إلى نفسى هذا السؤال إلا بعد أن عانيت ألوف المكاره من الوقوف عند حال واحد في الحب والبغض ، والاقتراب والابتعاد . والأوراق هى العواطف فما بالنا نحصر حرص الأشجاء على استبقاء تلك الأوراق ، وفيها ما يصل إلى الذبول والجفاف ، ومن الخير أن نخلعه بلا رحمة ولا إشفاق ؟ ما بالنا نحصر عليها حين تصل بأحباب يصعب عليهم أن يقاسمونا شتاء الزمان ؟ إن الله لا يرضى على الشجر بالورق الجديد عند قدوم الربيع ، فهل يرضى علينا بالهوى الجديد عند استهلال الرضاء ، وقد عرفنا من كرم الله ما لا تعرف الأدواح والأوراق ؟ وهل يملك الدوح من الحيوية عند سقوط الورق مثل الذى تملك من الروحانية عند خمود الوجد ؟ أكاد أجزم بأن الماء المكنون في الشجرة الطارية من الورق لا يقاس إلى الجمر المكنون في القلب الخالى من الحب ، فنحن والشجر إلى ربيع قريب ، وإن استطال الشتاء وبعد لحظات عاد الفتى المصرى إلى محادثة القلب

— الدوح مجلل بالسواد ، والسواد شارة الحزن ، فما بال الدوح يحزن وهو غاية في القوة ؟

— الحزن من علام القوة ، وليس من علام الضعف ، فهو دليل على شعورنا بقيمة ما نقدد ، ولا يقع ذلك إلا ونحن أقوياء ، والجملة هم الذين لا يفرقون بين الحزن والذهول

— وكيف ؟

— أنسيت ما قرأناه لأناطول فرانس من أن اللوت نتيجة لضعف vitalité

— أذكر ذلك ، ولكننى أخشى أن يكون الحزن هو أيضاً نتيجة لضعف الحيوية

— أنت مخطئ في هذا التأويل ، فالحزن هو صوت الشهوة إلى النعيم المفقود ، والشهوة لا تصدر عن النفس إلا في حالة الفتوة والأريحية والطفانيان

— وإذن فما بال جماعات من خلق الله تندد بالمحزونين ؟

— كما تندد جماعات من خلق الله بالفرحين !

— ماذا تريد أن تقول ؟

— أريد أن أقول إن الحسد هو الذى يحمل بعض الناس على التنديد بأهل الأحران والأفراح ، وما قام في الدنيا أدب ولا مجد ولا سلطان إلا بفضل ماني عاطفة الحزن أو الفرح من ثورة واشتعال

— أريد أن أحزن ، يا قلى ؟

— أريد أن تفرح بالحزن الصادق ، فقد كان شعار الأنبياء ؟

أما الحزن الكاذب فهو شعار المتصنعين . إن للحزن آداباً يجملها أكثر الناس ، ومن آداب الحزن أن يصدر عن عاطفة لا عن تصنع ، وأن يأخذ وقوده من الإحساس لا من الخيال ، وأن يردنا إلى الصدق فيما نكتب وفيما نقول ، وأن يزيد في احترامنا لأهل الأفراح ، فهم إخوان أعزاء ، ولو قلهم الفرح إلى آفاق الجنون . أنظر إلى هذا التمثال وذلك التمثال !

قال الفتى المصرى :

ونظرت فرأيت تمثالين : أحدهما لعامل مكدود ، والثاني لفتى تحتضنه فتاة بأسلوب يمنع من وصفه أدب أهل الشرق ، وقد ضمت إليها كما يضم الحبيب المحبوب ، وما أحب أن أزيد ، وهل أستطيع القول بأن ذلك التمثال أقصع عن أشياء ينكرها الحياء ؟ من بلايا الزمن أن الكاتب لا يملك من الحرية ما يملك المثال !

كان هذان المنظران التباينان يمثلان السلامة الوجودية أصدق تمثيل ، فالعامل المكدود هو مثال الحزن الشريف ، واحتضان الفتاة للفتى هو مثال الفرح النبيل ، وليس من السب أن تفرح أو نحزن بإفراط وإسراف مادامنا صادقين . وهل تهجم الفتاة على الفتى إلا طاعةً لفرصة كريمة هى سر البقاء ؟ وهل يحد وجه العامل المكدود إلا في سبيل السعادة لأطفال يمتنى أبوهم أن يجملوا معنى الفقر في أيام الشتاء : شتاء الزمان ؟

— وكيف أحتفظ بثروة من أعدائها الليل والنهار ؟

— أنت أقوى من الليل والنهار ، إذا أردت ؟

— وكيف ؟

— اجمل الليل والنهار من خدامك

— كيف ؟ كيف ؟

— لا تضع لحظة واحدة بلا عمل نافع ، فالعمل الموصول

فن من السيطرة على شباب الزمان ؛ ألم تسمع بأخبار نوح ؟

— وما أخبار نوح ؟

— عاش في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً

— وهل يعيش الإنسان ألف سنة إلا خمسين عاماً ؟

— بقليل من الفهم تترك أن عمر نوح لا يرجع إلى الكمية

الصورية ، وإنما يرجع إلى الكمية المعنوية ؛ وقد استطاع نوح

باختراع « السفينة » أن ينفذ الإنسانية من « طوفان » الفناء ؛

فالعشرات من أعوامه تد بالثلاث . فاصنع صنع نوح ، لتعيش

عمر نوح !

قال الراوى :

ثم رأيتني أهتف بقول أحد الحكماء :

ولو أن عمرى عمر نوح وبمته بساعة وصل منك قلته كفانى

فأله وحده هو الذى يعلم قصة الورق والدوح ، وهو الذى يعلم

ما أعانى من البلية بين القاهرة وباريس وبغداد . وهو الذى يعلم كيف

أفر من التصريح إلى التلويح ، لينجو « الورق » من الانتضاح

إن عاد الربيع ، إن عاد ، فسوف نعقد « معاهدة ودية »

لا ينقضها خريف ولا شتاء

وشبابى ، شباب الجسد والروح يحذرنى بأن الربيع إلى معاد

ويلطف الله بمن يقول :

لنجواك أستبقي شبابى فطاطى

كؤوس الهوى قبل ايضاض الفارق

نكه مبدك

ثم عاد الحوار بعد لحظات :

— حدثك عما قرأنا لأنا طول فرانس ، فهل تذكر ما سمعنا

لمهد الطفولة في سنترس ؟

— لا أذكر من سنترس غير أطياف بددتها أحلام باريس ؛

فإذا تريد ؟

— كان أهل سنترس يقولون : « لما ينحصر التوت ،

البرد يموت »

— وما معنى ذلك ؟

— معناه أن الأوراق هي الوقاية من البرد !

— وإذن ؟

— وإذن تكون العواطف هي الوقاية من شتاء الزمان

— وما حال الشجرة التي لا ينخلع عنها الورق في أى وقت ؟

— هي شجرة سميدة أعادها القدر من اختبار الأحباب ،

ومزينة هذه الشجرة أنها تتنوق ما في الأرض والهواء من حيوية

عارمة لا تلتفت إلى تغير الفصول إلا في أندر الأحيان !

— وهل في مقدورنا أن تكون مثل تلك الشجرة ؟

— إذا تخلفنا بأخلاصها

— وكيف ؟

— في الأسبوع الرابع من آذار تظهر تباشير الورق الجديد

فوق غصون الأشجار التي عانت آلام المري في الشتاء ، وننظر

فترى الأشجار الصغيرة أوردت قبل الأشجار الكبيرة ، فنفهم

أن للشباب يبدأ في سرعة الأوراق ؛ وقياساً على ذلك يكون الشباب

الدائم هو الذى يحمى بعض الأشجار من سقوط الورق في الشتاء

— أيمكن لهذا الملحوظ دخل في هديس شجرة « الجيز »

عند قدماء المصريين ؟

— ليس هذا التخرىج بغير ، وقد يضاف إليه أن لشجرة

الجيز ميلاً إلى البر بالجيران ؛ فهي تمد فروعها لتمتصهم بالثمار والظلال

بلا انتظار للجزاء !

— أراك تهرب من الجواب !

— وأراك لا تفهم المعارىض !

— أنا أحب أن أعرف كيف أحتفظ بالشباب

— إذا احتفظت بالعواطف

— وكيف أحتفظ بالعواطف ؟

— إذا احتفظت بالشباب !

